

إشكالية المعنى والدلالة عند عبد القاهر الجرجاني جدلية الظاهر والباطن

أ. حقاين جمعة – جامعة باتنة

Fairouz401805@live.fr

ملخص

يدور موضوع الدراسة حول البحث في إشكالية مفهومي المعنى والدلالة في الدرس النقدي العربي القديم، وكيفية مقارنة النقاد العرب لمثل هذا التداخل الاصطلاحي الذي عرفه المصطلحان، وكيف تعاملت المحاضن المعرفية باختلاف تخصصاتها كالبلاغة، النقد، أصول الفقه مع هذه الإشكالية، وكان عبد القاهر الجرجاني موضوع الدراسة، كونه صاحب نظرية النظم والتي خص البحث فيها عن كيفية حضور المعنى والدلالة داخل الكلام وكيفية إجتراح الدرس النقدي العربي لهذا المبحث.

Résumé:

Ce présent article traite d'une problématique concernant la définition du sens et de la signification dans l'ancienne pensée arabe, et la manière dont ces penseurs arabes ont traité ces sujets, et le chevauchement des deux terminologies, et comment ces différents cercles scientifiques dans leur spécialités respectives (poétique, critique, ossol fiqh....etc) ont traités la question.

J'ai pris comme modèle le grand penseur ABDEL KAHER ELJORJANI étant une référence et auteur de la théorie des systèmes qui traite de la problématique citée auparavant.

مقدمة :

طالما كان البحث في علم المعاني والبيان في الدراسات العربية، علما يختص بمباحث الجملة من حيث قيمتها الجمالية والدلالية، بدءاً بالبحث في القيمة التأثيرية لهذه الجملة، أو ما يعرف في هذه الدراسات بمقتضى الحال، الذي يحتل مساحة واسعة من علم المعاني، وعلم البيان، في ضرورة البحث عن مقتضيات استعمال الصورة المجازية في الكلام.

وغالباً ما كانت ترتبط هذه المباحث ببناء الجملة على أساس تكوينها النحوي، الذي يفضي إلى تلك القيمة الجمالية داخل الجملة؛ كتعلق الفعل بالاسم، أو تعلق اسم باسم، أو تعلق حرف بهما، وهذا ما يدعوه القدماء "بعلم المعاني". وفي هذا يقول ابن الأثير مفرقا بين عمل النحوي والبلاغي: «إنهما يشتركان في أن النحوي ينظر إلى دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة، وصاحب البيان ينظر في فضلة تلك الدلالة؛ وهي دلالة خاصة والمراد منها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن»¹. وعلى هذا فالنحوي والبلاغي على صلة واحدة مع الجملة، في أدائها اللغوي وما يترتب عنه من قيمة جمالية متصلة بالتركيب اللغوي.

إلا أن هذا التكامل الوظيفي بين البلاغة والنحو، ما فتئ أن استحال إلى قوالب جامدة، نتجت عن إغفال النحويين دراسة الظواهر النحوية متصلة بالتركيب اللغوي، فقصروا مهمتهم على البحث في ضبط أواخر الكلمات، ولم ينتبهوا إلى البناء وقيمته النحوية الفنية، إلى أن أدرك عبد القاهر الجرجاني تلك الصلة الحميمة بين العلمين، فنشأ علم المعاني والنحو لصيقين عنده، موصولاً للأسباب بإعجاز القرآن الكريم، فعلم النحو عنده لا يكفي فيه أن يكون علم تُعرف به أحوال أواخر الكلمات إعراباً وبناءً، وإنما هو علم نظم الكلمات، وما يتصل به في ضوء علم المعاني، أو ما سماه هو بـ "معاني النحو". واللغة عنده ليست مجموعة متجاوزة من الكلمات؛ بل هي شبكة مترابطة من العلاقات لكل علاقة منها دلالتها وخصوصيتها، يقول محمد مندور: «منهج عبد القاهر يستند إلى نظرية في اللغة، أرى فيها، ويرى فيها كل من يمعن النظر أنها تماشي ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء... حيث يقرر المؤلف ما يقرره علماء اليوم من أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات»².

¹ - المثل السائر، ابن الأثير، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، نهضة مصر، القاهرة، دت، ص

² - النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور، مطبعة دار نهضة مصر، دت، ص 112.

وهذا ما سنراه لاحقاً في منهج الجرجاني وغيره من علماء الإعجاز، الذين استطاعوا أن يصلوا بفكرهم النقدي إلى المزاوجة بين بنية الجملة النحوية، وفعاليتها على المستوى الوظيفي الدلالي الذي يعرف عندهم بالمعنى، أو عند عبد القاهر بـ "معنى المعنى". وهذا يقودنا للحديث عن الدرس البلاغي القديم والجهود العربية في هذا الشأن فقد اتخذ النحاة الكلمة المفردة وحدة تحليلية للجملة، فحملوها وظيفة الأبواب النحوية المفردة، لأسباب عدة أوجزها الدكتور تمام حسان فيما يلي:

- 1- أنها أصغر عنصر لغوي صالح للإفراد.
 - 2- أنها تدل على معنى مفرد.
 - 3- أن لها صيغة صرفية معينة.
 - 4- أنها تعتبر صيغة صرفية للواحق والزوائد.
 - 5- أنها العنصر اللغوي الوحيد الذي يظهر عليه الإعراب.
 - 6- أنها أصغر ما يصلح للتقديم والتأخير في السياق.
 - 7- أنها تتطلب غيرها ويتطلبها غيرها³.
- وعلى هذا الأساس كان للكلمة أو المفردة الحظ الأوفر من الدراسة والتفصيل. أما الجملة، فلا تخرج عن كونها مجموعة من المفردات المتباينة إعراباً وتعريفاً وتذكيراً وما إلى ذلك، وليس لنا أن ننكر على النحاة ما ذهبوا إليه في تخصيص العناية بالمفردة أو الكلمة على حساب الجملة؛ لأن تركيب النص المتصل، إن سمح باستنباط بعض الضوابط الفضفاضة بالنسبة لعلاقات الجمل ومعانيها، فإنه من الصعب إخضاع أي عنصر أكبر من الجملة، لمثل ما تخضع له التراكيب النحوية من التقعيد الصارم.
- وإذا كان مبحث البلاغة في الأصل هو إيجاد العلاقة بين الأسلوب والمعنى، فإن المعنى يُخضع الجملة لبنائها العام الذي وردت

³ الأصول - دراسة استمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، د/ تمام حسان، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1401هـ / 1981م، ص17.

فيه ضمن السياق، وهنا نتوقف عند ظاهرة "التضام" التي شرح النحاة - تحديداً - من خلالها بعض تقنيات الجملة كالذكر والحذف، والإظهار والإضمار، والفصل والوصل، وفي هذه العلاقة بين العلمين، علم النحو والمعاني، نجد تمام حسان يعلق «أن النحو ينظم الأبواب في الجملة، وأن علم المعاني ينظم الجمل في أسلوب كلام متصل، بمعنى أن النحو تحليلي، وعلم المعاني تركيبى»⁴.

٣- نماذج تطبيقية/ حول الإسناد والبنية الإسنادية

إذا عدنا إلى تعريفات "المعنى" عند علماء الإعجاز، فإننا سنخلص لنتيجة لا تخرج عن إطارها العام عن معنى "الإفادة في الكلام"، وربما كان هذا ناتجا عن تأثر اللاحق بالسابق، إلا أن هذا لا يعني عدم التجديد والتوسيع من دلالة "المعنى" بين باحث وآخر، فهذا عبد القاهر الجرجاني يصرح في دلائله بقوله: «... هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو، قد أصيب به موضعه... فلا ترى كلاما قد وُصف بصحة نظم أو فساده، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد إلى معاني النحو وأحكامه»⁵.

أما السكاكي، فهو يعرف علم المعاني بأنه «تتبع خواص تركيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحال ذكره»⁶، وهكذا نرى أن أحد التعريفين يجعل من علم المعاني علما يختص بالنحو وأصوله وأبوابه، والآخر يرى فيه قواعد الكلام، التي يقتضيها الحال.

⁴ - الأصول، دراسة استمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، د/ تمام حسان، ص 242.

⁵ - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، نج: سحمت التونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1999، ص 39.

⁶ - مفتاح العلوم، السكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت، ص 84.

وعليه، فعلم المعاني عند الجرجاني تقتسمه أكثر من مهمة، فعدا كونه تلك الأصول والقواعد التي تحرر الكلام من الخطأ، وذلك بتتبع الجزئيات، التي يمكن أن نسميها مباني الكلام، للوصول إلى الغاية، وهي تلك المعاني الناشئة عنها، وربما هذا ما جعل بعض الدارسين المحدثين يرون أن علم المعاني، اتجه اتجاهها معاكسا لعلم النحو؛ فبدأ من منطلق المعنى باحثا له عن المبنى، وذلك حسب قولهم: «لكل مقام مقال، فالمعنى هو الذي يقتضي الذكر أو الحذف، التقديم أو التأخير، الفصل أو الوصل، الخبر أو الإنشاء...»⁷.

إلا أن هذا لا يعني البنية، التناقض بين العلمين بالضرورة، فذلك إنما يعني في نظر معظم الدارسين - وفي مقدمتهم عبد القاهر الجرجاني - أن العلمين متكاملان، وكل واحد منهما يتم الآخر ويكمله، ولعل من أهم صور التكامل بين العلمين، أن نرى علماء المعاني، قد اتجهوا في دراساتهم إلى التسليم؛ بل والاعتماد على أهم أصل من أصول النحو، وهو "أصل الوضع"، سواء أكان هذا الأصل مرتبطا بنمط الجملة من حيث بنيتها، أم كان مرتبطا بالعلاقات الداخلية، والقرائن الدالة على المعاني المفردة فيها؛ إذ الأصل في كل جملة، أن يكون لها ركنان أساسيان هما: المسند والمسند إليه، ومن الركنين وضعوا قواعد عدة، هي أساس علم المعاني⁸. عدا تلك الدلالات التعبيرية التي اختص علم المعاني باستنباطها من الكلام؛ كالدلالات النفسية والعقلية، الأمر الذي رشح البلاغة أن تحمل عبء النقد زمنا طويلا، إلى أن جاء علماء الإعجاز من المتأخرين، أمثال: الباقلاني والجرجاني، ليعيدوا كفة النقد بين طرفيها: النحو والبلاغة، كونهما مبحثين يحققان إنتاج الجمال والصحة في الكلام في الوقت ذاته.

فخلص علم المعاني عند الجرجاني، إلى صورة قريبة مما هو عليه اليوم في مزاجتها بين بنية الكلام ودلالته، وخاصة في التعامل

7 - الأصول - دراسة استمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، د/ تمام حسان، ص 348

8 - ينظر: الأصول - دراسة استمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، د/ تمام حسان، ص 348.

مع المفرد، وكيفية تطابقه المعجمي، أو خروجه عن دلالاته الأصلية إلى معان أخرى. وقد كان في الحقيقة هذا التعامل مع الأفراد عند علماء الإعجاز، بمثابة تمهيد منهجي للتعامل مع (التركيب) الذي تجمعه صوره الشكلية داخل (علم المعاني)، الذي قدم السكاكي فيما بعد تحديده المعرفي النهائي بأنه: «تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»⁹.

وأول ما يلفت الانتباه في مقولة السكاكي، هو افتتاحه التعريف بكلمة (التتبع)، مما يعني اتجاه البلاغة - وتحديداً - علم المعاني إلى الناحية الاستقرائية، بمتابعة الظواهر التعبيرية في سياقاتها المختلفة، وهنا تحديداً تخرج البلاغة عند السكاكي من النظرة التجزيئية، إلى تسليط الضوء على التراكيب في ذاتها، كون (التتبع) يخلص إلى التراكيب، بكل ما تحمله هذه التراكيب من قيم تعبيرية، ناتجة عن عملية الإسناد في الكلام، هذا الأخير الذي يتم بصورة عقلية أو تحليلية ناتجة عن استخدام المجاز في الكلام، أو عن متغيرات البنية الإسنادية في حد ذاتها.

حرصت البلاغة العربية - كما سبق وأن أشرنا - وعلم المعاني تحديداً إلى إيلاء الإسناد عناية خاصة ومتميزة، لما له من أثر مهم في تحسين تلقي النصوص، والاحتراز من الخطأ في الكلام، على حد تعريف السكاكي الذي سبق في ذلك علماء الإعجاز الأوائل، في مباحثهم البلاغية القائمة على الإعجاز القرآني.

فقد وجد عيد القاهر الجرجاني أن المجاز العقلي، يغير من بنية الإسناد في الكلام، وهي الفكرة نفسها التي أشار إليها الفراء من قبل؛ حيث تحدث عن قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾¹⁰ قال: «المكر ليس لليل ولا للنهار، إنما المعنى: بل مكرهم بالليل والنهار، وقد تجوز

⁹ - مفتاح العلوم، السكاكي، ص70.

¹⁰ سورة سبأ، الآية 33.

أن نضيف الفعل إلى الليل والنهار، وبكونا كالفاعلين؛ لأن العرب تقول: نهارك قائم وليلك قائم، وعزم الأمر: إنما عزمه القوم، فهذا مما يُعرف معناه فتتسع به العرب»¹¹ فإضافة المكر إلى النهار إنما هو عبارة عن تغيير في البنية الإسنادية، فبدلاً من إسناد المكر إلى الإنسان، حدث تحول في بنية الكلام بإضافة المكر مجازاً إلى الليل.

أما إذا عدنا إلى عبد القاهر الجرجاني، فإننا نجده قد أولى الإسناد، والعلاقات الإسنادية حظاً وافراً من دراسته؛ بل اعتمده كمنهج نقدي، يصل من خلاله إلى فك مغالقات هذه البنى، وهذا ما سنراه لاحقاً في نماذج من تحليله لبعض أي القرآن الكريم، خاصة أن الجرجاني قد ربط هذا الباب بجمالية الجملة والكلام؛ من حيث بنيتها العميقة أو (معنى المعنى)، خاصة في خروج الإسناد عن الحقيقة إلى المجاز الذي يعرفه بقوله: «إن كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه من العقل بضرب من التأول، فهي مجاز»¹²، فهذا هنا تحدث الجرجاني - تحديداً - عن الجملة، ويعني هذا أن المجاز يقع في الإثبات لا في المثبت؛ لأن المثبت لابد أن يكون مفرداً أو في قوة المفرد، والإثبات يكون في الجملة¹³، ويدلل الجرجاني على كلامه بتحليله لقوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾¹⁴. يقول: «جعل خضرة الأرض ونظرتها وبهجتها، بما يظهره الله تعالى فيها من النبات والنوار والأزهار وعجائب الصنع حياة لها، فكان ذلك مجازاً في المثبت؛ من حيث جعل ما ليس بحياة على وجه التشبيه. فأما الإثبات نفسه فمحض

¹¹ معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص363.

¹² - أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تح: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1987، ص356.

¹³ ينظر: استقبال النص عند العرب، د/ محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1999، ص344.

¹⁴ ينظر: استقبال النص عند العرب، د/ محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1999، ص344.

الحقيقة؛ لأنه إثبات لما ضرب الحياة مثلاً له فعلاً لله تعالى ولا حقيقة أحق من ذلك»¹⁵. وبهذا يضع الجرجاني تقسيماً للمجاز: عقلي ولغوي، فإذا كان في الإثبات فهو عقلي، وإن كان في المثبت فهو لغوي، وهو يعتمد في كل هذا على الجملة، كونها هي الأساس الذي تعتمد عليه عملية التأويل -كوننا نبحت في المجاز- وأن المعنى الثاني أو المعاني الثواني، إنما تقع في الجمل قطعاً، ولعل عبد القاهر في مجمل نظريته إلى البلاغة نراه لا يعتمد إلا مقياس الجملة أساساً للتحويلات في المعاني، وهذه التحويلات غالباً ما نراها تحدث حسب رأيه بفعل العقل¹⁶.

— في الأصول والمرجعيات المعرفية/

إن المتابع للدرس البلاغي القديم، يدرك قيامه على أساس من الخبرة الدقيقة بكل مفرداته، خاصة مع بزوغ البحث والتنقيب في النماذج الأدبية الراقية، سواء أكانت شعراً أم نثراً أم (قرآناً)، كجنس أدبي متفرد - حسب رأي أغلب علماء الإعجاز - إلا أن الدلالة كمصطلح نقدي قائم بذاته، لم يكن له وجود بالمعنى الحديث للمصطلح، والذي نراه اليوم يحتل مساحات واسعة من اهتمامات علماء اللغة والألسنية وعلم النص.

أما إذا نظرنا في موروثة النقدي القديم، فإننا نجد أن الأصوليين، كانوا أول من عرض لمفهوم الدلالة، في بحثهم حول وضع الألفاظ لمعانيها، والأصوليون؛ إذ يعرضون لهذه القضية اللغوية « ينظرون إلى أنه إذا ما كان الوضع للشيء فرع عن تصوره، فإن فهم الموضوع يحتاج إلى إدراك ما وضع له، بمعنى أن العلم بالمدلول يتحقق بعد سماع الدال على العلم بالمواضعة عند القوم الناطقين بالدوال، وطبعاً هذا بخلاف الدلالة العقلية والطبيعية، التي لا تختلف بين أمة وأخرى في الغالب. ومن ثم كانت عناية الأصوليين، وفيما بعد البلاغيين بالدلالة

¹⁵ أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص 344.

¹⁶ - ينظر: استقبال النص عند العرب، د/ محمد المبارك، ص 234.

اللفظية الوضعية، التي اهتموا بها في مصنفاتهم أيما اهتمام، ومفهوم الدلالة اللفظية الوضعية عندهم هي كون اللفظ: بحيث إذا أرسل علم منه المعنى للعلم بوضع ذلك اللفظ لهذا المعنى»¹⁷.

وأول ما يسترعي الانتباه في التعريف، هو استخدام مصطلح "المعنى" للتعبير عن "المدلول"، ومن هنا نفهم انشغال مبحث الدلالة عندهم بمعاني الدوال، وكيفية تحقق هذه الإفادة في الكلام، خاصة أن مباحثهم لا تشمل المفرد فحسب -- وإن انطلقت منه -- بل تشمل المركب أيضاً. والأصوليون يؤكدون على أن الألفاظ المفردة، ليس الغرض منها أن يفاد بها معانيها المفردة، ودلالاتها عليها، «بل الغرض من وراء هذه الدلالة الوضعية إفادة المعاني المركبة بتركيب هذه المفردات، باعتبارها من عناصر التركيب»¹⁸.

وهنا نخرج بنتيجة اتساع نطاق حصول الدلالة من المفرد إلى التركيب، مما يعني أن الدلالة عند الأصوليين والبلاغيين العرب، قد استطاعت أن تخرج من بوتقة الكلمة المفردة لتشمل التركيب، والبحث في إفادة هذا التركيب، وهذا ما نجده قد استقر فيما بعد عند عبد القاهر الجرجاني في دلائله؛ حيث يقول: «الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف، وأصل عظيم»¹⁹ مما يعني تطور مجال الدلالة، بين الأصوليين الأوائل والمتأخرين من البلاغيين والنقاد.

فكلام الجرجاني يدل على أن البحث في دلالة الألفاظ المفردة، ما هو إلا سبيل للوصول إلى دلالة التركيب عن طريق تضام هذه الألفاظ مع بعضها البعض، فالعناية بالمفردات في الحقيقة، إنما هي باعتبارها لبنات بناء المعنى التركيبي.

¹⁷ ينظر: دلالة الألفاظ عند الأصوليين - دراسة بيانية نافذة، د/ محمود توفيق محمد سعد، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1987، ص15.

¹⁸ دلالة الألفاظ عند الأصوليين، د/ محمد توفيق محمد سعد، ص15.

¹⁹ دلائل الإعجاز، عبد الناهر الجرجاني، ص350.

أما الدلالة حديثاً، فقد أخذت منحى آخر من الدراسة، وهي دراسات حديثة المولد نسبياً، فكلمة *Sementick* وردت في القرن السابع عشر، في عبارة "*Sementick Philosophy*"; وتعني "الكهانة"، ثم استخدمت في وثيقة قرئت على الجمعية الأمريكية لعلماء فقه اللغة عام 1894، غير أن مصطلح "علم الدلالة" لم يجد له الاهتمام الواسع في تلك الفترة، حتى تأليف كتاب '*The Meaning Of Meaning*'، والذي ألفه أوجدن *Ogden* وريتشاردز *Richards*، ونشر لأول مرة عام 1923، إلا أن الكتاب في حد ذاته، لم يُعرض للموضوع بصورة دقيقة غير تلك التسميات العديدة للمصطلح، التي نجدها قد وردت في ملاحق كتبها عالم اللسانيات مالينوفسكي *Malinovski* والتي تصب في معظمها في 'علم اللغة'²⁰

وتتفق جل الدراسات الحديثة حول علم الدلالة، أنه يدخل ضمن علم اللغة، بل هو جزء منه، أو مستوى من مستوياته. فاللغة يمكن أن ينظر إليها كمادة خام، وأولية ينطلق منها علم الدلالة، ويشارك معها في العلمية، كما حاول بعض العلماء الإفادة من الإمكانيات التركيبية في اللغة، برصد الخواص الشكلية، التي تصيب الجملة، ووصفها بدقة، ثم الخروج من ذلك بما يصيب الصياغة والدلالة من تغير أو انحراف، من تعميم أو تخصيص، وأصبحت الخبرة بالخواص الصياغية، هي خبرة بالدلالة على صعيد واحد²¹.

ثم إذا وصلنا إلى المرحلة التي تلي منتصف القرن العشرين، وحتى وقتنا الحال، وجدنا التباين في الآراء، بين المناداة باستبعاد أي نوع من دراسة المعنى، والدعوة إلى الاتجاه نحو (الشكل)، بحجة أن هذا الأخير، هو الجانب المنضبط القابل للتحليل العلمي، في مقابل عدم القدرة على السيطرة، على ذلك الجانب الخاص بالمضمون، والمناداة بعدم إغفال جانب مهم من جوانب اللغة، والذي يراه الدارسون أساس

²⁰ ينظر: علم الدلالة إطار جديد، تأليف: ف.ر. بالمر، تر: د/ صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الأزهر، 1992، ص18.

²¹ ينظر: البلاغة العربية قراءة أخرى، د/ محمد عبد المطلب، ص43.

الدراسات الحديثة، في مجال التحليل، وهو جانب الدلالة، و«تبرز في الوقت نفسه الأرضية التي نشأ فيها التحول من مرحلة التحليل اللغوي، المعتبر فيه كامل الوثوق، في الحصول على الدلالة المحددة للكلام، إلى المرحلة التي تُعنى بتحليل شبكة العلاقات بين الدوال ومدلولاتها، والوصول إلى نتائج تتعلق بتلك الصلات»²² بوصف الدال والمدلول وجهين لعملة واحدة، مما يقضي أن يكون البحث في المعنى أمراً لغوياً؛ «حيث تتبنى تصورات الحقول المعرفية غير اللغوية، حول الدلالة على المنجز اللغوي؛ لأن ما يكون كذلك في مستوى المفردة، يكون أيضاً في مستوى التركيب»²³

وانطلق النظر اللغوي إلى الدلالة من اعتبار أن دراسة بنية العلامة على مستوى الأصوات، تتم على مستوى التغيرات الصرفية، ثم على مستوى النظم. لا تكتمل إلا في ضوء النظر إلى حركة تلك البنى، وهذه الحركات يظهر تمازجها في جانبين من جوانب الاستعمال؛ هما معاني المفردات ودلالة التراكييب²⁴.

والجملة الأخيرة تربط المعنى بالمفردة، والدلالة بالتركيب، وهو منحى يميل إليه الكثير من الدارسين، بل ويعتمدونه أساساً في التفريق بين (المعنى) و(الدلالة)، ويكاد أكثرهم يجمعون على انصراف لفظ (المعنى) إلى اللفظ المفرد، ولفظ (الدلالة) إلى التركيب، على تفاوت واضح بينهم، في تحديد المفهومين، على وجه الدقة. وتجدر الإشارة إلى اتجاه النقاد المعاصرين إلى الصاق مفهوم (المعنى)، بما تفيد الكلمة في اللغة؛ أي المعنى المعجمي، والصاق مفهوم (الدلالة) بما يضيفه المتلقي

²² مدخل إلى علم اللغة، عبد العزيز محمد حسن، مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، دط، 1992، ص240.

²³ علامات في النقد، حضور الدلالة وغيابها، وجهة نظر لغوية في قراءة النص، محمد ربيع الغامدي، ج39، مج10، مارس 2001، ص90.

²⁴ ينظر: موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: د/ أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، ع227، الكويت، نوفمبر 1997، ص342.

إلى التركيب؛ جملة وعبارة ونصا ونصوصا من المعاني، والمعنى على كل توجيه خاص، والدلالة أعم²⁵.

والخلاصة التي يمكن أن نخرج بها، هي أن مصطلح (الدلالة) بما يحيل إليه الآن في الفكر المعاصر بعامة، وفي الحقل النقدي على وجه الخصوص، قد كثر الخوض فيه، وتعددت البحوث حوله، وتباينت في تحديد مفهومه، خاصة مع وجود مصطلحات أخرى؛ كالشرح والتفسير والإيضاح والتأويل والفهم... تدخل ضمن علم الدلالة كاليات لقراءة النص؛ من حيث هو مفهوم متحرر من أي قيود تذكر، ذلك أن حرية القارئ في اختيار الدلالة مقيدة بالمعنى المعين، الذي يفرضه التتابع المتضام لمساق الكلمات، وما يفرضه الفهم الخاص للقارئ لذلك التتابع.

ـ نظرية النظم/ سؤال الشكل والجوهر

يعتبر الجرجاني في نظريته اللغوية، من أنصار الصلة والالتحام بين اللفظ ومعناه، وأثار في أكثر من سياق ومبحث، إلى عدم إمكانية الفصل بينهما بفاصل، كما أشار إلى شكل عملية الفكر اللغوي التي تتم في وقت واحد، يُطلب المعنى، فتجئ الألفاظ بحسب هذا الطلب، أو ما يعرف بالصياغة وهذا ما تسعى إليه في الحقيقة، جل المدارس النقدية الحديثة، التي تحاول أن تجعل من النص، وحدة شاملة لأجزاء متفرقة، وعلى رأس هذه الأجزاء البنية والدلالة، داخل النص، التي تتفرع هي الأخرى إلى تفرعات وتبويبات عدة، بحسب التيار النقدي الذي يقودها من شكلانية أو بنيوية أو تفكيكية، أو غيرها من المذاهب، فأصبح هم الدارسين والباحثين هو لم شتات النص، والبدء بعناصره الأولية، كخطوة أولى، وهو التحام المعنى بالمبنى، ليصل النص إلى انتهائه وكماله؛ « ويتضح مما توردّه المعجم القديمة والحديثة، أن الدلالة الحديثة لمصطلح النص، لم تكن غائبة كلياً في المعجم العربي وهي

²⁵ ينظر: المشاكلة والاختلاف، د/ عبد الله الغدامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994، ص43.

تلتقي مع ولادة المصطلح في اللاتينية، التي تشير إلى معنى بلوغ الغاية، والاكتمال في التصنع»²⁶. يقول عبد القاهر: «أن تعرف للفظ موضوعاً من غير أن تعرف معناه، ولا تتوخى في الألفاظ؛ من حيث هي ألفاظ ترتيبية ونظام، وأنت تتوخى الترتيب في المعاني، وتعمل الفكرة هناك، فإذا تم لك ذلك، أتبععتها الألفاظ، وقفوت بها آثارها... والعلم بموقع المعاني في النفس علم بموقع الألفاظ الدالة عليها في النطق»²⁷.

وحتى لا نبعد كثيراً عن الرؤية النصية، عند الجرجاني، ضمن نظريته في النظم، فإننا نحاول تفصي أجزاء هذه النظرية، التي كما يظهر أن الجرجاني قد حاول من خلالها أن يبحث في دقائق التركيب اللغوي، وبناء مفهوم شامل لهذا التركيب، بأبعاده المختلفة، مركزاً على بعده اللغوي، كلبنة أولى، تتأسس عليها جميع المظاهر النصية الأخرى. «وهذا يحيل على مفهوم جاكبسون الذي يرى أن النص الأدبي يتميز بتقديم الإمكانات اللغوية، بحيث تكاد تتمحي وظائف الكلام الأخرى، لتترك المجال لنظام من العلاقات الدقيقة بين عناصر النص»²⁸. فالأبواب التي ذكرها عبد القاهر في الدلائل، لتفسير النظم، لا تنأى عن كونها لما لشتات متفرق بين كتب البلاغة والنحو، وأضاف إليه جانباً كبيراً من الدقة والتحليل، ونجح في إدراك العلائق الدلالية، التي تجتمع عناصر الكلام المتفرقة، من نحو وبلاغة، ونقد، ونراه يوضح أن معاني النحو ليست في الإعراب ولا في معرفة القواعد النحوية، وإنما تتجلى في معرفة مدلول العبارات، وبعبارة أخرى، النظم عند عبد القاهر هو الأسلوب، وعلى حد قوله «الأسلوب، الضرب،

26 - اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية المصطلح في الخطاب النقدي الحديث،

فاضل تامر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994، ص86

27 - اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية المصطلح في الخطاب النقدي الحديث،

فاضل تامر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994، ص86

28 - الأدب والغربة، عبد الفتاح كليطو، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1983، ص20.

من النظم والطريقة في»²⁹ وهذا فعلا ما وصل إليه الجرجاني، وهو إيجاد الأسلوب، وطريقة الولوج إلى النص، حتى وإن اختلفت المفاتيح في ذلك، سواء أكان المفتاح نحويا أم بلاغيا، أم حتى فلسفيا، فلم يترك الجرجاني بابا في النص، إلا وطرقه، وبين دقائقه وفتح معانيه، فالحروف لكل منها معناه الخاص الذي ينفرد به عن غيره، وأطراف الإسناد لها أحوالها الخاصة، فالمسند - إما أن يكون اسما أو فعلا، وقد يكون نكرة أو معرفة، وربما يأتي متقدما أو متأخرا، وقد يفصل بين المسند والمسند إليه بضمير الفصل، ولكل ذلك معنى يختلف عن الآخر، ثم نرى أن الأمر ليس مقصورا على الكلمات - وإن كانت الغلبة لها - بل يتعداه إلى الجمل، فلفصل موضع، وللوصل موضع، لا يصلح فيه الفصل وهكذا.

كما أن عبد القاهر يعد صاحب الفضل الأكبر في بناء "علم المعاني" الذي ينسب إليه، فيذكر أن الغرض الأصلي من الكلام، هو بيان العلاقة بين النظم والنحو، خاصة أن النحو عنده وسيلة لها هدفان؛ فالهدف الأول هو ضمان صحة الكلام، وعدم فساده، والهدف الثاني يمتد إلى البحث في العلاقات التي تقيمها اللغة بين الكلمات، وإلى اجتلاء معانيها وكشف غامضها: «ومما ينبغي أن يعرف أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفرادا ومجردة من معاني النحو...»³⁰.

وقد أفاض الجرجاني في سوق الأدلة، التي تبين أن النظم ومعاني النحو، لا يمكن أن يفهم أحدهما دون الآخر؛ «فسبيل المعاني كسبيل الأصبغة والأحجار الملونة التي تعمل منها الصورة والنفس، ولا معنى للنقش والتصوير دون إحياءات، وتحسن الصورة بما تملك من مقومات فنية»³¹.

²⁹ أثر النحاة في البحث البلاغي، د/ عبد القادر حسين، ص 373.

³⁰ - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 303.

³¹ - نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، وليد محمد مراد، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1983، ص 28.

فمنهج عبد القاهر هو منهج النحو، الذي لا يقف عند حدود الحكم بالصحة والفساد، بل يمتد إلى البحث في العلائق التي تقيمها اللغة بين الكلمات، فوسع بذلك أفق النحو، ليشمل كل ما يراعيه النظم من تقديم وتأخير، وما إليه، من أسباب الجودة وعدمها، فيما يدخل ضمن باب "علم المعاني". ومن ثم فالأساس عنده هو النحو على أن يشمل هذا الأخير علم المعاني، وأن يتجاوز القواعد النحوية إلى الجودة الفنية³².

فالجمل الفني هو مبحث الجرجاني من خلال نظريته، وإن اعتمد فيها على قوانين النحو المضبوطة والمحكمة، وتكبر قيمة هذه الفنية عند الجرجاني من خلال اهتمامه بالصياغة وبالمعاني، يقول: «لأن النظم والترتيب في الكلام كما بينا عمل يعمل مؤلف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها، وهو بما يصنع في سبيل من يأخذ الأصباغ المختلفة، فيتوخى فيها ترتيباً يحدث عنه ضروب من النقش والوشى»³³. كما يحسب للجرجاني وصوله إلى المعاني الثواني في الكلام، والتي عادة ما نجده يستتبطها بحس فني وذوق جمالي عال، ولذا نراه يقول: «الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة... ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل، وإذا عرفت هذه الجملة، فهنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: المعنى ومعنى المعنى»³⁴.

وفعلا استطاع عبد القاهر بنظريته في "المعنى ومعنى المعنى" أن يسبق النقد الحديث بأشواط طويلة، ولا أحد ينكر له فضل السبق في هذا المجال، فعبد القاهر لم يغفل في بحثه المعاني الإضافية، وقيمة دلالاتها الجمالية في النص الأدبي، ليولد منها وحدة العمل الفني بشكل عام عن

³² ... ينظر: أثر النحاة في البحث البلاغي، د/ عبد القادر حسين، ص 383.

³³ ... دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 236.

³⁴ ... نفسه، ص 173.

طريق ربط المضامين والأجزاء والأشكال بأربطة وثيقة تعبر عن الوحدة والاتحام³⁵.

في نقد النقد/

على الرغم مما عرفته وتعرفه اليوم نظرية عبد القاهر في النظم، من اهتمام وإكبار، من قبل الدارسين والباحثين، إلا أن الأمر لا يخلو من بعض الملاحظات، التي رأى فيها الدارسون، بعض النقص الذي يشوب النظرية في بعض جوانبها، ويدعو بذلك إلى فتح أفق البحث أمام الدارسين، لأجل إتمام واستكمال مشروع النظم عند عبد القاهر الجرجاني.

فهذا الدكتور رجاء عيد يثني على القيمة العلمية، والفنية لنظرية النظم إلا أنه يتحفظ بشكل علمي على منهج الجرجاني في بحثه، فيعترض على تحمس الجرجاني لمباحث النحو، مما قد يلهيه عن التدقيق الجمالي لبعض صور الكلام، فيرى في تطبيقه على قوله تعالى: (واشتعل الرأس شيباً)، ترسيخاً لمبادئ النحو، أكثر من أي شيء آخر، فيقول: «فنحن لا نجادل في فلسفة عبد القاهر في تحليل التركيب اللغوي، وإنما نجادل في السرف في المنهج، والزعم بأن سواء منفصل، ففي الآية ترك عبد القاهر الحديث عن القيمة الاستعارية وانشغل بالتعريف والتذكير...»³⁶، فقد أسهب الجرجاني في شرح المواقع الإعرابية لكل كلمة في الآية، وتبرير ورودها بهذا الشكل، وربما هذا ما قد يشفع له تركيزه على الناحية النحوية في تحليل الآية، والتي كانت الغاية من ورائه، إدراك العلاقات الدلالية بين هذه العوامل النحوية، التي تقضي إلى إدراك كنه المعاني الثواني في الآية.

كما تناول النقاد أيضاً، نقد المنهج الجرجاني في انشغاله عن تفصيل المعاني المستفادة من الكلام، على نوع السياق الذي تدرج ضمنه: «ففي الحذف لا يعبر عبد القاهر عن تناول جديد للغة، ولا

³⁵ — ينظر: نظرية النظم، وليد محمد مراد، ص183.

³⁶ — فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، د/ رجاء عيد، ص112.

يعرض لفاعليتها أو لمغزى النشاط النحوي فيها، وإنما يظل اهتمامه فيها يعاني من سيطرة الدلالات الموجهة الثابتة... فهو لا يتناول من تأثير السياق في جزء من أجزائه إلا القليل الواضح»³⁷، وربما تحدث الدكتور تامر سلوم هنا عن الحذف - تحديداً - لما يحتاجه الحذف من إدراك الفاعلية السياقية للكلام، ومن ثم الوصول إلى القيمة الجمالية، التي حققها هذا الحذف: «صحيح أن عبد القاهر يشير إلى الأثر الذي يعزى إلى الحذف، ولكنه لا يربطه بوجدانية السياق، وإنما يردد به إلى اعتبارات نحوية (حذف المبتدأ، حذف المفعول...)»³⁸.

وأشد ما تلاحظ قيمة اهتمام عبد القاهر الجرجاني بمباحث النحو وتفريعاته، في أثناء حديثه عن الفصل والوصل، فقد ناقش الجرجاني هذه الظاهرة البلاغية بالوقوف مطولا على العوامل النحوية الفاعلة فيها، كما تحدث عن أشكال كثيرة من العلاقات بين الجمل، إلا أننا نجهل قيمة هذه العلاقات الدلالية التي لا يحيلنا فيها على أشياء واضحة عدا بعض الإشارات العابرة، إلا أنه نبه في بداية حديثه عن الفصل والوصل لصعوبة الوصول إلى حقائق هذا الباب، لما يكتنفه من صعوبة ودقة: «إن الفصل والوصل من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخالص والأقوام الذين طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام»³⁹.

إلا أن الجرجاني لم يعقب في كلامه على كنه هذه المعرفة وسر هذا الذوق، وعلى الرغم من كون الأنواق مادة جمالية بعيدة عن معايير القياس والتفسير المنطقي، إلا أن كلام الجرجاني يجعل القارئ يربط بين الجمالية الذوقية وبين معاني النحو المستفادة من الكلام، كون الجرجاني يجعل من معاني النحو شغله الشاغل، ومسلكه الوحيد - في أغلب الحالات - لتقصي جماليات النص، رغم أنه لا يوضح معالم هذه

³⁷ - نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، د/ تامر سلوم، ص133.

³⁸ - نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، د/ تامر سلوم، ص136.

³⁹ - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص150.

الجمالية. فالمعنى اللغوي أو النحوي، من حيث هو نشاط ذو خصائص استيطانية تلون استجاباتنا، وتحدد تأثيرنا، وتوجهه، أمر لم يفتن إليه عبد القاهر ولم يأخذ منه عناء⁴⁰.

إلا أن اللوم في هذا لا يقع على عاتق الجرجاني منفردا، وإنما هو سمة طالما اصطیغت بها الكتابات النقدية قبل الجرجاني: فالموروث النقدي والبلاغي، لم يعرف الاستقلال بفكرة التحليل اللغوي الاستيطاني، وكل ما هنالك عبارة عن ملاحظات ضيقة تستمد وجودها من الفقه اللغوي أو المنطقي، كما سلفت الإشارة إليه، ومن المؤكد أن عبد القاهر قد أنفق وقتا طويلا وبذل جهدا واسعا، لإخراج نظريته في النظم على هذا الشكل، ولأشك أنه نجح في إبراز نوع العلاقة، التي تربط بين معاني النحوى، وكيفية النظم، مدرجا الذوق الفني، شرطا لإدراك تلك العلائق، وإن لم يتحدث عنها بشكل مباشر، ولكن موضع الإنكار في النظرية، والذي يتفق عليه جل الدارسين، هو حصر نظرية النظم في البحث في الجمل، دون النصوص، فعبد القاهر حين طبق نظرية النظم على الأمثلة والشواهد، لا نراه يتعدى الجملة أو الجملتين، كما في الفصل والوصل، ولا يتجاوز ذلك إلى القطعة الكاملة أو القصيدة الشاملة، ولا نطن ذلك قصورا في الوعي النقدي عند الجرجاني، فالذي يستطيع أن يدرك ماهية العلائق التي تربط الكلمات داخل الجمل، والحروف داخل الكلمات، ليس بالبعيد عليه أن يدرك علائق الجمل بعضها ببعض، في بنائها الدلالي العام، غير أن السر في ذلك مرده، في حقيقة الأمر، إلى سببين رئيسيين:

الأول: أن العرب لم تكن تعرف وحدة القصيدة أو القطعة، فيقسمونها أبياتا أو جملا، كل منها يستقل عن الآخر، فتأثرت البلاغة، بمنهج القدماء في النقد، وسلكت سبيله في العناية بالجملة دون النص.

⁴⁰ — ينظر: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، د/ تامر سلوم، ص 140.

أما الثاني: فلأن عبد القاهر جعل النظم في توخي معاني النحو وطبيعة النحو تتركز في تجزئة المعاني، فمداره الجملة وما يطرأ على كلماتها من اختلاف في الإعراب ونحوه.

كما يأخذ بعين الاعتبار الغرض الديني من النظرية؛ حيث أراد الجرجاني الدفاع عن إعجاز القرآن، وبيان طريقته من خلال النظم، ولعل هذا ما جعل تطبيقاته لهذه النظرية، لم تكن إلا على مستوى الجملة الواحدة بوصفها وحدة فنية مستقلة، تحمل كل مواصفات تمايزها واستقلالها؛ حيث إن كل آية، وكل جملة هي معجزة في حد ذاتها. أما تحليل النصوص الكاملة، فلم يلق أي اهتمام من طرف النقاد، لتركيزهم البحث في الكلمة أو الجملة، دون محاولة جدية لفتح أبواب النص، غير أن كل هذا، لم يكن لينتقص من قيمة نظرية الجرجاني في النظم، ولا يدني من مكانتها العلمية، لما حققه فيها من تكامل، شمل ضرورياً عديدة من المعارف، كالبلاغة والنحو، والصوتيات وغيره، مما جعل الميدان مفتوحاً، لحمل هذه العدة الفريدة، ومحاولة ولوج عالم النص من خلال أهم بواباته المذكورة، ولعل أهم هذه البوابات، النحو. فالواقع أن فاعلية النظام النحوي في خلق المعنى المتعدد غير ماثلة في أذهاننا بشكل واضح، وهذه الفاعلية جزء أساسي من حيوية اللغة، وقدرتها على أداء كثير من وظائفها، وقد بذل المتقدمون ما وسعهم من أجل توضيح هذه الملاحظة، والتركيز عليها في بناء الوعي النقدي للنص، وتحديد النص القرآني كنموذج ومثال.

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، برواية ورش
- 1 - أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تح: عبد المنعم خفاجي، ج1، 2، مكتبة القاهرة، ط3، 1979.
- 2 - بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان أحمد بن محمد إبراهيم الخطابي، تح: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1968.
- 3 - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمد التونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، .

- 4 - معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2، 1981.
- 5- مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر السكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت
- 6 - المثل السائر، ابن الأثير، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، نهضة مصر، القاهرة، دت
- 7 - النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور، مطبعة دار نهضة مصر، دت،
- 8 - الأصول - دراسة استمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، د/ تمام حسان، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1401هـ/ 1981م
- 9 - استقبال النص عند العرب، د/ محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1999
- 10 - دلالة الألفاظ عند الأصوليين - دراسة بيانية ناقدة، د/ محمود توفيق محمد سعد، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1987
- 11 - علم الدلالة إطار جديد، تأليف: ف.ر. بالمر، تر: د/ صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الأردن، 1992
- 12 - مدخل إلى علم اللغة، عبد العزيز محمد حسن، مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، دط، 1992
- 13 - علامات في النقد، حضور الدلالة وغيابها، وجهة نظر لغوية في قراءة النص، محمد ربيع الغامدي، ج39، مج10، مارس 2001
- 14 - موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: د/ أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، ع227، الكويت، نوفمبر 1997
- 15 - المشاكل والاختلاف، د/ عبد الله الغدامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994
- 16 - اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية المصطلح في الخطاب النقدي الحديث، فاضل ثامر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994
- 17 - الأدب والغرابية، عبد الفتاح كليطو، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1983
- 18 - نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، وليد محمد مراد، دار الفكر، دمشق، ط1، 1983